الالتـــزام الأدبـــي..

في أعمال.. يحيى الحاج يحيى للأطفال

لم تعد قضية الاهتمام بأدب الطفل وتنشئته مسألة جدلية يختلف فيها المربُّون والأدباء، وذلك لأن عالم الطفل عالم قائم برأسه، يحتاج من أصحاب المواهب والخبرات أن يسعوا في بنائه، وأن يحشدوا من طاقاتهم وإبداعاتهم ليمنحوه صفوها.

ولاتغيب عني في الحقيقة صورة الحافلة التي مضت تغذُّ السير والتنقل في الحيِّ الذي كنت أقطنه في مدينة لورنس الأمريكية، كانت هذه الحافلة مترعة بالكتب والمجلات المتخصصة بأدب الأطفال، ومضت تجوب الحيَّ فتختلط بالأطفال، وهم يلعبون قريبين من بيوتهم، فتعرض عليهم المسؤولة التي كانت تشاركهم في ألعابهم قصة صغيرة، أو أنشودة، أو شعراً، أومعارف مناسبة، ثم تقدم لهم العمل الأدبي على طريق الإعارة، ويكفي أن تسجل في دفترها هاتف منزل الطفل المستعير، ثم تحرص على أن تغري جمهورها بالحصول على جائزة إن أكملوا مطالعتهم لما يستعيرونه.

لقد أدرك القوم أهمية العناية بتثقيف الطفل، والأدب الذي يناسبه منذ نعومة أظفاره، فسعوا في تنشئته عبر منظورهم إلى وظيفة الأدب في الحياة، وعبر الوسائل التي يمكن استثمارها لهذا الغرض، وليس غريباً على عصرنا اليوم أن نسميه بعصر العقائد والنظريات، حيث يحاول كل فريق منتم إلى هذه العقائد والنظريات أن يكون له أدب يترجم تعبيره عن الحياة بمعناها العريض.

ولقد أدرك أدباؤنا الموهوبون أن ساحة الطفل تكاد تكون مفتوحة للأدب الآخر، بما يتضمنه من عادات وأعراف لايعهدها المجتمع الإسلامي، ومبالغات وخرافات وسحر، ومعان تستقي من الصليب والكنيسة كثيراً من مصطلحاتها وتراثها، وكم من سلسلة عرفتها السوق الأدبية تقدم المادة البراقة، التي تجذب الطفل وتستهويه من مثل قصص: اللفتة العجيبة، سام والفاصوليا، الأميرة وحبة الفول، الهر أبوالجزمة، القدر السحرية.... ومن هنا كان على أدبائنا أن ينهضوا بما يناسب زخم المسؤولية وأعباءها، ومن هؤلاء الأديب القاصّ والشاعر يحيى الحاج يحيى، عضو رابطة الأدب الإسلامي، الذي تخصص بأدب الطفل في مرحلة المدرسة الابتدائية.

●● ونظرة فاحصة إلى إنتاجه تؤكد لنا هذا السبق المتميز الذي كان يحوزه، حيث كانت تشغله معادلة دقيقة وهي تقديم مادة أدبية تتصف بالمتعة والبناء الفكري المتوازن، وكان من إنتاجه:

١ـ سلسلة «**قصص من السيرة**»[١] ومن مفرداتها: «**مؤمن يتحدى المشركين**» ويعني به عبدالله بن مسعود، و«**رجل أنقذه الله من النار**» ويعني به خالد بن سعيد بن العاص، و«**أحسن الناس وجوهاً**» وهو الطفيل بن عمرو الدوسي، و«**خير وافد**» وهو ضمام بن ثعلبة، و«**عاقبة الغدر**» وفيها جانب من سيرة عامر بن الطفيل.

يود القاص من هذه السلسلة أن يرسم للطفل دروساً تربوية من خلال السيرة، بعد عرض الومضات المختارة عرضاً شائقاً، بلغة سهلة مناسبة، ومعان بعيدة عن التعقيد، إنه حريص على أن يستمتع الطفل بعالم السيرة النبوية الرحيب، بيد أن الأديب الملتزم حريص على أن يحقق معنى آخر يبثه في ثنايا المتعة، يقول في أقصوصة «**مؤمن يتحدى المشركين**»:[٢]

«ازداد إعجاب أصحابه به، ووثقوا من أن

بقلم: د. أحمد الخراط

الدين الذي فيه رجال من أمثال عبدالله لابد أن ينتصر، وأن ضآلة الجسم وقلة العشيرة لاتمنع المؤمن من الجهر بالحق وتبليغه إلى الناس»، ويخرج الطفل من قراءة السلسلة بزاد فكري مبني على هذه الومضات اللامعة، من حياة نماذج لها شأنها، كما أنه يخرج بزاد تربوي وتعليمي مكتوب بأسلوب شائق، ولغة مختارة، ليس فيها تعبير ركيك أو ضعيف، وقد صاحب هذا كله إخراج جميل، من حيث الشكل، وجمال الحرف، والضبط ويعمد القاص بعد ذلك إلى أسلوب النشاط التطبيقي، فيكلف الطفل بمجموعة من المهارات العملية، كأن يقول له بعد الحديث عن **عبدالله ابن مسعود**: «في كتاب الأربعين النووية حديث رواه هذا الصحابي ابحث عنه واكتبه في الفراغ التالي» أو يقول له: «ارسم صورة للكعبة أو ألصق صورة لها» وبذلك تكون هذه السلسلة وسيلة حية تضمنت بناء فكر الطفل وعقله بالأدب والثقافة والتوجيه، أذلك خير له أم نتركه نهباً لأمثال سلسلة «لايد بيرد» وغيرها من الأدب الدخيل؟

٢ـ سلسلة «**حكايات شعرية**»:(٣) وهي مجموعة قصص شعرية موزونة تدور حول عالم الحيوان الذي يستهوي الطفل بما فيه من متعة وطرافة، كما يجد فيه الشاعر سانحة ليصوغ من خلالها بالأسلوب الشائق المعنى ذا العبرة اللطيفة، ويساعده على ذلك موسيقى الشعر التي يصطحبها الطفل في إنشاده لها، فيترنم بإيقاعها وهو يلهو ويلعب، وهذه الحكايات هي: حيلة الثعلب، الثعلب والأرنب والضب الذكي، الأسد والثيران الثلاثة التي ينشد فيها:(٤)

قال له الليث أنا الغضنفرُ
وهذه الغابةُ لي يا أحمرُ
لأجعلَنْ لحمك أشهى وجبةِ
قد طال شوقي يا قليلَ الخبرةِ
الليث لم يرحمْ صُراخَ الأحمر
والبائسُ المخدوعُ في تحسُّر
يصرُخُ صرخات الأسى المنقبض
إني أُكلِّتَ يومَ أكل الأبيضِ

ثم تأتي حكاية مجير أم عامر(٥) التي يقول فيها:

فابعدَتْ وأسرعَتْ لكنها ما انتفعَتْ
فانشبَ السهمَ بها وكان ذا عقابَها
ونال منها ثارَه وقال فيها شعرَه
ومَنْ يصنع المعروفَ في غير أهله
يلاقي الذي لاقى مجيرُ أمّ عامر

أما الحكايتان الخامسة والسادسة: العيد والأصدقاء، ضيوف حاتم الطائي فلا تدوران حول عالم الحيوان، بيد أنهما يدوران في الفلك الذي يهواه الطفل. والحكايات جميعها من الرجز الذي يختلف فيه حرف الرويّ، ويتحقق في كل منها العبرة التربوية المنشودة، على الطريقة غير المباشرة، التي تعتمد على المتعة في الإنشاد، والمعنى التربوي، واللغة السهلة البعيدة عن الركاكة والضعف، والرسومات التي تستهوي الطفل في المرحلة المبكرة.

والسلسلة الشعرية هذه مفعمة بما يثير عند الطفل حب الاستطلاع، ومعرفة النتيجة، بعد تلاحم عناصر العقدة البسيطة التي آلف بينها الشاعر، وفي هذا معرفة بأغوار نفسية الطفل، في هذه المرحلة الزمنية من عمره، وقد ابتعد الشاعر عن تقديم النصيحة المباشرة التي تدخل في دائرة الوعظ الصرف، وإنما قدم المعنى التربوي الذي يتطلع إلى غرسه عن طريق قنوات الإنشاد الشعري، والإيقاع الجميل، والخيال الرحيب، واللفظة الموحية.

٣ـ سلسلة «**أسمعني حكاية**»:(٦) وهي مجموعة أقاصيص نثرية تعتمد كذلك عالمي الحيوان والطبيعة: الجدول الضائع،

ابتعد الشاعر في أعماله عن تقديم النصيحة المباشرة التي تدخل في دائرة الوعظ البحت.

السمكة الذكية، الديك الذي لايصيح، النحلة والوردة الحمراء، الحمامة الأمينة، ويقف وراء كل أقصوصة منه معنى نظيف، والتزام هادف مبثوث في ثناياها، من مثل قول الوردة الحمراء للنحلة:(٧) «شكراً لك أيتها الصديقة إنك لم تقابلي عملي السيئ بمثله، ولولا مساعدتك لي لما عدت إلى الحديقة»، ومن الطبيعي أن يعتمد الأديب على بساطة العقدة، لأنه يكتب للبراعم، فقصة الوردة الحمراء مثلاً تدور بين وردة تقابل سلام النحلة لها بجفاف، ثم يصيبها الذبول، مما يجعل صاحبها يقتلعها ويرمي بها بعيداً، ولكن النحلة تعطف عليها وتساعدها على عودة الألق والشذا إلى أوراقها.

ويتبين في أقصوصة «**السمكة الذكية**» ضرر الاعتداء على الآخرين، تقول السمكة الصغيرة(٨) «كنا نظن أن السمكة الكبيرة قوية لكثرة ظلمها لنا، ولكن جاء من هو أقوى منها عندما نكبر يجب علينا ألا نعتدي على من هو أضعف منا، حتى لانقع في قبضة من هو أقوى منا». أما أقصوصة «الديك الذي لايصيح» فتدور حول ديك كسول يتصف بالأنانية، حيث «لم يفعل شيئاً، بل كان يأكل الحَبَّ وينام، ويصر على حبس صوته «كيف أصيح وأم علي تطعم الدجاجات أكثر مني، والدجاجات قاعدات على البيض، وأنا وحدي أدور وأتعب»(٩) وهذا الموقف من الديك يجعل صاحبه يستغني عنه، ثم يندم الديك على مافعل، ولكن لم ينفعه الندم، ونقرأ في أقصوصة الجدول الضائع: «خير لي أن أكون في الثمرة ينتفع الناس بي من أن أبقى ضائعة بين الرمال».(١٠)

٤ـ سلسلة «**أناشيد الطفولة**»: وهي مجموعات شعرية في أربعة أجزاء تبدأ الأولى بالعقيدة، حيث يختار الشاعر مشاهد واقعية مما يلفت نظر الطفل، كالأرض والنجوم والبحار، وعالمي الحيوانات والإنسان وقد عني بعرض فكرة بسيطة عن طريق سؤال يردده الطفل نفسه، ثم يكون الجواب المنطقي برد الأمر كله إلى الله، فهو الخالق الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، يقول في قصيدة: **مَنْ علَّم النمل؟**(١١)

هذا نملٌ ما أصغره
يمشي هَوْناً ما أصبره
مَنْ علَّمه هذا الصبرا
من أسكنه هذا الوكرا
مَنْ علّمه نَقْل الحَبّ
منْ بَيْدرنا وعلى الدرب
الله تعالى علمه
الله تعالى ألهمه

ويستطيع الشاعر بريشته الشاعرية المبدعة، أن يسهِّل بعض المعاني العقلية المجردة، التي تحتاج إلى تصور سابق لإدراكها، ويعرضها أمام الطفل واضحة فاعلة، يقول في قصيدته «**في ميزان الآخرة**»:(١٢)

هذا الرجلُ عند الحشر
ما أبخسَه في الميزانِ
ليس له عند الرحمنِ
حسناتٌ منْ عمل الخير
في الدنيا بطلاً ظنُّوه
وهنا وافى كي يزنوه
خفَّ الرجل عند الوزن
وضخامته ليست تغني
ما أبخسه في الميزان
أثقلُ منه جناحُ بعوضة

وإلى جانب القصيدة صورة كبيرة لرجل مُدخِّن يجلس في كفة الميزان الأولى، وفي الكفة الثانية جناح بعوضة يفوقه في الوزن.

أما المجموعة الثانية فكانت عن الأسرة والمجتمع، وهدف الشاعر منها أن يربط الطفل المسلم بأسرته والأقربين، فيعطي هذا الطفل كل ذي حق حقه، من إسداء الفضل لأهله، وما يتبع ذلك من احترام وتقدير. فعلى الطفل واجبات جمة تجاه أهله وأقاربه ومجتمعه يقول في قصيدة «**أبي يعلمني**»:(١٣)

أبي الغالي يُعلمني
يُرَبِّيني ويُرشدني
وإن قَصَّرْت في فرض
يخاصمني يؤنبني
لقد أصبحت ذا سَبْع
فكيف أضَيِّع الفرضا
أبي الغالي يواسيني
ويرأف بي ويعطيني
وإن أمسَيْتُ في مرض
يرقّ عليَّ في لين
أبي للخير يهديني
ويَرْضى الله إن يَرْضَى

وتأتي بعد ذلك المجموعة الثالثة وهي خاصة بأناشيد العبادة والسلوك يقول المؤلف عنها في مقدمته: «لم يكن القصد منها تعليم الفرائض وكيفية أدائها بقدر ماهو تحبيب بها وتعميق لمعانيها، ولم يقصد منها حشر المعلومات في ذهن الطفل عن السلوك والدعاء وكيفيتهما بقدر ماهو نقل لمعانيها بلغة الشعر السهلة المحببة» ويقول في قصيدة «**عند الاستيقاظ**»:(١٤)

حمداً للباري أحياني
وأعاد الروح وعافاني
فإلى الله الحق نعود
بعد النوم، أبدأ يومي
كم أحمده قد ألهمني
أن أذكره خير الذكر

وتمضي المجموعة الرابعة في أناشيد السيرة والجهاد، حيث يود الشاعر من خلالها أن يربط الطفل المسلم بتاريخه

الإسلامي، فيتعرف على وقائعه من خلال أبرز أحداثه، ويتابع عظمة الأجداد وإنجازهم يقول في غزوة أحد:(١٥)

عاد الكفار إلى الثأر
للقتلى في وقعة بدر
بجموع نزلتْ في أُحُد
بقلوب أقسى منْ حَجَر
فمضى الأصحاب مع الهادي
لترفرفَ أعلام النصر
لكنْ بالحيلة قد رجعوا
وانقضُّوا منْ خلف الظهر
ورماة الجبل قد انشغلوا
بغنائمهم لا بالأمر

ولايعترض الطفل وهو يترنم بالإيقاع الشعري الذي تختزنه المجموعة أية عثرة من لفظة تصعب عليه، أو معنى يغيب عنه، وإنما تراه ينسجم مع العرض ويطرب له، ويصير على لسانه أغنية تشدُّ عليه انتباهه، وتشغل وقته، أذلك خير أم أدبهم الآخر بما يمتلكه من مبالغات وخرافات لاتقدم له سوى إثارة عرضية تغيب بعد مطالعتها.

وللأستاذ **يحيى الحاج يحيى** عملان قصصيان آخران، طبعت الأولى إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود بعنوان «قاضي الجيران وحكايات أخرى»، وطبعت الثانية هيئة الأعمال الخيرية بعنوان «حبتان»، كما أن له دراسة جادة عن أثر القصة على الطفل المسلم، تحدث في الفصل الأول(١٦) عن أثر القصص في الأطفال وواقعها، شرح فيها خطر القصص المترجمة، والتصور الإسلامي لقصص الجبن والاتجاهات المعادية، وكيف استغلت ميدان القصة، أما الفصل الثاني(١٧) فقد تحدث فيه عن المادة التي يقرؤها الأطفال وعرض نماذج للأدب الآخر وبين الثغرات الكبيرة التي تحويها، وأشار إلى عمل أستاذ تونسي قدم القصص القرآني في رسوم متحركة، حيث أقدم على تجسيد قصص القرآن وتحويل نصوصه إلى رسوم متحركة، بدعوى تثقيف النشء وتربية الأجيال وتوجيه الشباب، وبين الأستاذ يحيى المآخذ التي أخذت على هذا العمل، فهو يخلط بين ماجاء في القرآن الكريم وما يكتبه هو، وهذا الأمر له آثار سلبية على الناشئة، إذ يجعلهم يعتقدون أن كل ما يقرؤونه هو نص القصة القرآنية مع أنه ليس كذلك.

ثم شرح بعد ذلك البدائل التي تكاد تخلو من شوائب، وشجَّع الناشئة على قراءتها، وعرض أخيراً ملحقاً فيه صور وخطوط من الأدب الآخر، ليتبين للقارئ خطرها على الناشئة.

والحقيقة أن أعمال الأستاذ **يحيى الحاج يحيى** الشعرية والقصصية من النماذج الملتزمة برسالة الأدب الإسلامي، فهو حريص على إسلامية الثوابت والوسائل، من ثوابته: المعنى النظيف، والعبرة الهادفة، والتوجيه التربوي، ومن وسائله: اللغة السليمة والأداة غير المباشرة، والخيال المثير المحدود بإطار الواقع، وينتظم هذا كله فكرة بسيطة توائم الطفل في مرحلة الدراسة الابتدائية التي تخصص بها، وأبدع في مضمار العطاء لها.(١٨)

■■الحواشي:

(١) طبع في جدة، دار المجتمع، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م
(٢) مؤمن يتحدى المشركين ص٩
(٣) طبع في عمان، دار عمار، ١٤٠٧هـ، ١٩٧٨م
(٤) الأسد والثيران الثلاثة ص١٤
(٥) مجير أم عامر ص١٤
(٦) طبع في جدة، دار المطبوعات الحديثة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦
(٧) النحلة والوردة الحمراء ص١٤
(٨) السمكة الذكية ص١٢
(٩) الديك الذي لايصيح ص٤
(١٠) الجدول الضائع ص١٢
(١١) مَنْ عَلَم النمل ص٢١
(١٢) في ميزان الآخرة ص٤٣
(١٣) أبي يعلمني ص٩
(١٤) عند الاستيقاظ ص٨
(١٥) في غزوة أحد ص١٨
(١٦) القصة وأثرها على الطفل المسلم ص٧
(١٧) المصدر نفسه ص٣١
(١٨) للأستاذ يحيى ديوان شعر للأطفال «تغريد البلابل» يستحق أن يفرد بدراسة خاصة.

■■■